لا تطعن منافسك من الخلف

معروف ، وثابت تاريخيا ، أن مصر من أوائل الدول التى عرفت الفن السينيمائى: عرضا ، وصناعة ، وإنتاجا .

فقد شاهد الناس لأول مرة عرضا سينيمائيا لمناظر من الحياة اليومية فى مقهى «جران كافايه » يوم ٢٨ ديسمبر ١٨٩٥ بباريس ، مهد الفن السينيمائى . فى أوائل يناير ١٨٩٦ كان أول عرض سينيمائى فى مصر بمقهى « زوانى » بالإسكندرية . وفى نهاية ذلك الشهر (يوم ٢٨) شاهد جمهور القاهرة (ولم يكن كبيرا) أول فيلم سينيمائى بمقهى « سانتى » القريب من فندق شبرد فى موقعه القديم بشارع الجمهورية .

تاريخ طويل إذن .. جدير بأن يسجَّل ، ويحفظ ، ويُعرض ، ويُزار .. كيف ؟

فى متحف خاص ، وليكن قريبا من « ستوديو مصر » المجاور للأهرام ، أو على جزء من أرض هذا الاستديو الذى هو جزء حيوى فى تاريخ السينيما المصرية، وأثر طيب من أعمال الاقتصادى الوطنى العظيم : طلعت حرب .

يمكن أن يضم هذا المتحف العديد والطريف والمفيد من العناصر والمكونات التى صنعتْ تاريخ هذا الفن فى مصر ـ الرائد دائما ـ وتنَسَّق وتعرض بأسلوب جيد جذاب معلِّم : صور فوتوغرافية حقيقية على مدار السنين، نماذج ، ملابس ، حلىّ ، إعلانات أفلام دعائية أو كانت منشورة بالصحف ، رسوم وأنماط من الديكور

والأكسسوار والأدوات المستخدمة ، والسيناريو للأفلام ذات القيمة الفنية والتاريخية .... ثم يضاف ترتيب ندوات وأمسيات منتظمة فى شبه ناد للسينيما ، تعرض فيها نماذج أو مقتطفات من أفلام لها قيمتها وأثرها فى الحياة الفنية والاجتماعية، مع شروح وتعليقات الفنيين والمتخصصين الأمناء . ويراعَى أيضا زيارات الطلاب والشباب فى رحلات مدرسية أو شبابية ، وفق برنامج يجمع بين التسلية والترويح والمعرفة وتأكيد الاعتزاز بالوطن وإنجازاته ، واتصال الماضى بالحاضر ، وإثارة الطموحات نحو المستقبل ... ويلحق بذلك تحقيق دخل ونفع ـ معا ـ من خلال بيع كتب ونشرات وصور ونماذج ومواد لا حصر لها ، وكلها متعلق بدور المتحف ورسالته .

فكرة ...

ليست مستحيلة ، بل قد تكون مطلوبة ونافعة ومثمرة ، ينهض بها الرسميون ، أو الأدباء والفنانون ، أو نقابة هؤلاء ، وهؤلاء ، أو السلطات المحلية أو الشبابية أو .. القطاع الخاص ، ولم لا ؟ !.. فلدينا مثال ..:

فى أوائل التسعينيات افتُتح فى حديقة « جريفيث » بمدينة لوس أنجلس الأمريكية متحف « جين أوتْرى » لأفلام « الغرب البعيد Far West [1] » أو رعاة البقر ، جاءته الهدايا ـ المناسبة له ـ من مواد وصور وتحف وملابس ووثائق ومصنوعات من كل الجهات والشخصيات، ومن بينهم « رونالد ريجان » الرئيس الأمريكى الأسبق، ومعروف أنه قديما مثّل أدوارا ـ رديئة ـ من أفلام رعاة البقر .

ومن يكون « جريفيث » هذا ؟

---

(١) كان يقصد بهذا التعبير ـ قديما ـ الغرب الأمريكى شبه المهجور أو المهمل ، البعيد عن المناطق الشرقية العامرة بالسكان والوافدين . فكان هذا الغرب محتفظا بتقاليده وأخلاقياته وسماته المميزة التى قدمتها السينيما الأمريكية ابتداء من سنوات العشرينيات فى نوعية من الأفلام أطلق عليها « Westerns »، أو رعاة البقر « Cow - boys » ...

هو منتج ومخرج سينيمائى (ولد ١٨٧٥ ومات ١٩٤٨) . بدأ عمله السينيمائى مخرجا عام ١٩٠٨ ، وفى خلال أربع سنوات كان قد ابتكر عدة وسائل وأساليب سينيمائية ما زالت تستخدم حتى اليوم ، مثل : تقطيع السيناريو إلى مشاهد محددة بترتيب فنى (ديكوباج) ؛ استخدام الإضاءة الصناعية ؛ تميع أو إذابة معالم الصورة فتصبح غير واضحة (فلو Flou) ، طبع صورتين معا .. أو منظرين أحدهما فوق الآخر ليظهرا على الشاشة معا لإعطاء معنى التواصل أو التداخل أو السيطرة ، وابتكر أيضا لأول مرة عام ١٩٠٨ حركة الرجوع بالكاميرا (وهى تصوِّر) إلى الخلف، وذلك فى فيلم « مغامرات دوللى »، وفى عام ١٩٢٠ أنشأ شركة «الفنانين المتحدين » مع شارلى شابلن ، ومارى بيكفورد ، ودوجلاس فيربانكس . وله العديد من الأفلام الصامتة التى أخرجها أو أنتجها ، أخرج فيلمان ناطقان : «أبراهام لينكولن » عام ١٩٣٠، و « الكفاح » عام ١٩٣١ ، ولم يحققا نجاحا .

من اليمين : شارلى شابلن ، مارى بيكفورد ، دوجلاس فيربانكس عند تأسيس شركة « الفنانين المتحدين» وظلتْ مارى مساهمة فيها حتى سنة ١٩٦٠ .

أما « جين أوتْرى » الذى تجاوز الرابعة والثمانين عند افتتاح هذا المتحف الذى يحمل اسمه وأنفق هو الكثير على إقامته ، فقد مثّل وتقاسم البطولة فى ثلاثة وسبعين فيلما عن الغرب البعيد ورعاة البقر ، فى الفترة بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٦٨ . وله تعبيره المشهور فى تعليق له على هذا العدد الكبير من الأفلام : « لم أطلق النار من الخلف مطلقا فى أى من هذه الأفلام على منافسى أو عدوّى » . وهو الذى وضع «قانون » أو «ميثاق الشرف» لراعى البقر البطل الحقيقى أو البطل الذى يظهر فى هذا النوع من الأفلام :

١ ـ راعى البقر (كاوْ ـ بوىْ) لا يكون أبدا هـو البادىء بإطلاق الرصاص ، ولا يضرب من هو أضعف منه ، ولا يحصل على منفعة غير شريفة .

٢ ـ لا حق له مطلقا فى الرجوع عن وعد ، أو كلمة أعطاها، أو يخون الثقة التى وضُعت فيه .

٣ ـ محتم عليه دائما أن يقول الصدق ، ويُظهر الحق .

٤ ـ يجب أن يكون مهذبا مع النساء ، وكبار السن ، ومع الحيوانات .

٥ ـ محظور أن يُظهر عدم تسامح سواء إزاء اختلاف الجنس أو العقيدة .

٦ ـ عليه مساعدة البؤساء والتعساء والمحزونين .

٧ ـ يجب أن يكون عاملا مجتهدا نشيطا ، وليس خاملا أو كسولا متعطلا .

٨ ـ أن يكون على الدوام نظيفا : فى فكره ، وفى كلامه ، وفى ملابسه .

٩ ـ مع احترامه للمرأة ، يبجل والديه ، ويصون قوانين بلده .

١٠ ـ إن (الكاو بوىْ) مواطن جيد .

* * *

جون واين أشهر نجوم السينيما العالمية فى أفلام رعاة البقر . مات سنة ١٩٧٩ فى سن ٧٢ .

فى عام ١٩٢٤ ، كتب أحد الصحافيين (جران أرويْ) يصف رعاة البقر أو رجل الغرب بقوله : « إنه توحُّد يجتمع فيه معا الرجل ، والحصان ، والمسدس ، ومستعد متحفز دائما لأن تنطلق الرصاصة إلى حيث تقع نظرته - يُحكم التسديد ، فتخرق رصاصته الرءوس من بُعد مائة خطوة . يحمل ذهبه (نقوده) فى صُـرَّة ، ويلف سجائره بيده ... » .

مع الأيـــام أصبـــح هـــذا النمط السينيمائى المميز مقبولا ومحبوبا من الجمهور فى أمريكا وخارجها ، لأنه فى الغالب، وتبعا لقانون أخلاقياته يستهوى الكثيرين فى أى مكان ، فيستشفون منه نُبل الفرسان القدماء ، إلى جانب الإثارة وتنازع الدوافع وصراعات البواعث خاصة إذا انتصر فى النهاية الخيِّر ، الشجاع ، الجرىء ، المنتصر للحق ، حقه هو أو حقوق المغلوبين على أمرهم ، وما أكثرهم فى هذا العالم !

إن راعى البقر باختصار : يمثل الاستمتاع الفردى بالحياة فى حالته « الخام » أو الطبيعية البدائية ؛ رجل ، وسيلة الانتقال عنده (الفرس) ، وأداة قوَّته المسدس (أو البندقية) ، الحب، الصداقة ، الفعل الإيجابى أو الحَدَث .

وما معنى متحف لرعاة البقر بعد أن تحول الغرب الأمريكى « البعيد » إلى مدن عملاقة وصناعات جبارة وشواطىء سياحية ترويحية جاذبة مبهرة ، وثراء طاغ يفوق ما كان عليه الشرق الأمريكى منذ كان ؟

ما قيمة التذكير بعصر مضى ، سينيمائيا وواقعيا فى الحياة ، أو إحياء شعور بالحنين إلى الحصان والغدارة (المسدس) ومرْكبات البريد وأزياء السيدات التى تكاد تغطى كل شىء ، فى عالم اليوم الذى يكشف كل مستور ، ويفعل كل محظور ، واستُبدلت الخيل والبغال والحمير بالسيارة والمترو والطائرة ، واستُوْلد من الغدارة ما هو أشد غدرا وفتكا كالرشاش والمدفع ، والقنابل الذرية ؟

الصور مع عقارب الساعة من أعلى يمينا ..

١ ـ أوليفيا دو هافيلاند مع إرول فلين فى فيلم : « مدينة المراوغة » .

٢ ـ مارلن ديتريش مع جيمس ستيوارت فى فيلم : « امرأة الشيطان » .

٣ ـ درويس دفينبورت مع جارى كوبر فى فيلم : « فارس الصحراء ».

٤ ـ كلير ترفور مع جون واين / وجون فورد فى فيلم : « كوكبة الفرسان الخيالية » .

٥ ـ جريس كيلى وجارى كوبر فى فيلم : « القطار يصفِّر ثلاث مرات » .

إنه المعنى والقيمة : أن يتذكر ، خاصة الشباب والأجيال الصاعدة ، أن الإنسان يشق طريقه فى الحياة ، بنفسه ، فيجد أنها صعبة ، قاسية ، وأحيانا شرسة شريرة عاتية ، فلابد أن يكون قويّا ، مستعدا ، يقظا فى كل لحظة ، واثقا فطنا فى كل موقف ، مبتسما متفائلا فى كل أزمة وشدة . إن التفوق والنجاح الحقيقى فى الحياة ـ وليس المسروق أو المغصوب أو المتوهَّم ـ يأتى نتيجة عمل ، وعمل جاد وشاق وقد يكون محفوفا بالمخاطر ، مرتكزا على قرار الفرد وحُسن اختياراته وسداد تصرفاته فيما يواجه من مواقف صعبة أو منافسة كريهة . ثم إن الحياة لها قوانينها الصارمة ، ونظامها الدقيق الذى لا يتغير ولا يَخْتل مهما حاولنا عبثا تغييره أوتحويله . ومن هذه القوانين : لكى تعيش سعيدا فى حياتك ـ أو على الأقل مستريحا بعض الشىء ـ عليك أن تفكر جيدا فى ينابيع المنشأ والفطرة ، والتى استمد منها « جين أوتْرى » منهاج أو ميثاق راعى البقر فى بنوده العشرة التى ذكرناها .

إن البطل فى فيلم رعاة البقر ، صانع نفسه ، ماضٍ إلى مصيره رغم أنفه ، فهو يرشدنا إلى أن الجرأة ـ وليس التهور العابث ـ والعزيمة والثقة بالنفس ، تتولد منها الإيجابية والإقدام بثبات وصبر على العمل الشريف الجاد . أما النتائج فهى فى أسوأ أحوالها لاتدفع إلى اليأس أو الهلع ، فإما أن تكون النهاية والموت ، وهى النهاية المحتومة لكل إنسان ، وإما أن يبدأ المرء ـ بنفسه وبمقوماته وأسلحته ـ من جديد . وهى ببساطة : الرجل ، والفرس ، والسلاح ، والحب ، والصداقة ، والعمل الجاد....

***